الأخبار
al-akhbar

■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول: ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب
■ مدير التحرير: وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير: محمد زبيب، حسن عليق، إيلي حنا، أمل الأندري، شربل كريّم
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس
■ تلفاكس: 01759500 01759597
■ ص. ب 113/5963
■ الإعلانات الوكيل الحصري ads@al-akhbar.com 01/759500
■ التوزيع شركة الأوائل 01 /666314ـ15 ـ 03 / 828381
■ الموقع الالكتروني www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper

حدّثني أبي

حبيب الشرتوني

منذ قيامي بعملية اغتيال المشروع المُعدّ للبنان والمنطقة في عام 1982، ومساهمتي في خسارة إسرائيل مشروع دولتها الكُبرى، وظل الكيان أسيراً ضمن أسواره التي لم تكن مشيَّدة بعد، ثم خسرت الولايات المتحدة أشدَّ حلفائها المعدّين لأدوار أساسية ومنهم بعد مقتل بشير الجميل، المدعو رفعت الأسد الذي وصلتْه أموال طائلة من الخليج على مدى سنوات، وقد تحضَّر وقتها للانقضاض على قصر المهاجرين مع سرايا دفاعِه المحيطة بالعاصمة. ناهيك عن خسارتهم الجزئية أو المؤقّتة للقاعدة الفعّالة لهم في لبنان، والتي لم ييأسوا إلى يومنا هذا من صبّ اهتمامهم بها، بالرغم من كل الأحداث التي جرت لهم فيها، سيَّما أن لديهم حلفاء وعملاء أشدَّاء وأوفياء، حتى رصدوا مليار دولارٍ لبناء سفارتهم الجديدة.

ومنذ ذلك التاريخ، وأنا أتعرَّض مع عائلة أبي الكُبرى لشتّى أنواع وصنوف التعذيب والتصفية والنفي والحرمان من أبسط الحقوق، كل ذلك خارج القوانين والأعراف والتشريعات الدولية والمحليّة، إلى حدٍّ انقطَع فيه اتّصالي بكل أفراد عائلتي الذين ما زالوا على قيد الحياة. ولكن نتعرَّض أيضاً لحملة منظّمة ومبرمجة وممولّة لتشويه سمعتنا، في الوقت الذي لم يبالِ فيه أيٌّ من المستفيدين مما قمت به، بالدفاع عني وعن عائلتي، أو حتى مساعدتنا في شيء، وفي مقدّمة هؤلاء بعضُ الأحزاب والسياسيين ممن تقدموا في السلطات على حساب ما قمنا به. ومعهم رجال الأعمال المرتبطون غالباً بهم، والذين يقومون باستثمارات كبيرة ورابحة.

هذا سبب رئيسي، دفعني إلى تدوين هذه السطور ليس إلا لأنَّ الناس في بلادنا لا تتمتَّع بذاكرة قوية فتنسى الموقف والكلام، لا بل لأن بيننا من لا يبقى ثابتاً على قناعة، ويحتاج باستمرار إلى صاحب الشأن، ليوضح الأمور والملابسات ويقدم ما يعزز القناعة، بعدما يتعرض هؤلاء للحظة شك نتيجة تصريح مبتذل من أيّ عميلٍ أو مجرم حرب أو سارق أو متورّط بالخيانة، كما أنَّ صاحب الشأن في حالتي، لا يملكُ وسيلةً إعلامية على حسابه أو في مقدوره التصريح بما شاء وقتَ يشاء. فكيف عندما يخرج شخص مثل جورج فريحة بكتاب هدفه تبرئة ساحة «بشير» عن المسلمين. من ملف معاهدة السلام مع إسرائيل. علماً بأن علاقات «بشير» الإسلامية، اقتصرت في حينه على حفنة شخصيات تقليدية تمثِّل نسبةً متدنية من الشارع الوطني والإسلامي فترة الحرب الأهلية، وأبرزهم صائب سلام.

كما أن كلام فريحة المتلفَز على قناة «OTV» المعروفة التوجُّه في هذا الملف منذ كان العماد ميشال عون ضابطاً في الجيش، انحدرَ إلى مستوى دوني بهدف المساس ولو كلامياً بالأعراض، مثل الإيحاء بعلاقة مشبوهة بين جان ناضر الذي كان قد تجاوزَ الستين من العمر وشقيقتي التي في السادسة والعشرين، والتي طُلبت للزواج أكثر من سبع مرات خلال سنوات قليلة، لشخصيتها الحاضرة وجمالها وسمعتها الحسنة ومستواها الأكاديمي والثقافي. إذ تخرجَّت في كلية إدارة الأعمال في الجامعة اليسوعية وأتقنت ثلاث لغاتٍ بشكلٍ ممتاز، فيما لم تلتقِ بناضر إلا مرَّة واحدة بطلبٍ من خالتي ماريّ عازار التي كانت على معرفة به منذ مقاعد الدراسة، وأرادت إبلاغه رسالةً شفهية في مسألةِ بيعِ أثارها وسوف تردُ معنا بعد قليل، وقد نّزلت لدقائق من البيت إلى مكتبه في المبنى أمامي وأمام كل الكتائبيين والجيران الحاضرين. وهكذا أمسى بشير ـ حسب رواية فريحة غير الصحيحة على الإطلاق ـ مقتولاً بسبب علاقة مشبوهة، لأنهم كانوا على علم بالقاتل وأعفوا عنه!

لعمري قد يصلحُ كلامٌ كهذا مشهداً لفيلم خيالي ساخر، إذ اغتيل في المنطقة الشرقيةً كل الذين عُرفوا علانيةً بانتمائهم للحزب السوري القومي الاجتماعي تقريباً، وقد تخطّى عددهم الخمسمئة من المسجَّلين في مكتب الشهداء، وفق ما قاله لي مسؤول المكتب من آل حاموش في عام 1981، فكيف لو عُرف أي شخص حاول اغتيال قائدهم، سواء كان قومياً أو حتى كتائبياً أو بأي انتماء؟!

لم يكتفِ الكاتب بهذا المقدار، بل ذهبَ أبعد من ذلك ليخلطَ بيني وبين ابن عمّي الذي قصدوا تصفيته - انتقاماً من عائلتنا - عن طريق إرساله إلى الجبهات بالرغم من انخراطه في صفوفهم خلال حرب السنتين، قبل أن يتركّهم على أثر اعتقالِهم له وتعذيبه ـ فيما عجزوا عن تصريفِه بسبب شراسته ـ وكانوا قد تمكنوا من استمالتِه نظراً إلى وضعه العائلي. فهو نشأ يتيماً، فقد والدته وهو في الرابعة من عمره. واعتادوا أخذه لتدريبه عشية الحرب من مدرسة دير المعوش للرهبان ذي النظام الداخلي دون علم عمّي شفيق الذي كان يعيده إلى المنزل نهاية كل أسبوع. وهو كان يعمل في إدارة مصنع للألبسة أسسه والدي من ماله، ليديره زوج خالتي في منطقة الحدث ببيروت، وقد سُرق مع بضاعته وآلاته ومحتوياته بالكامل أيام الحرب.

كان عمّي شفيق قد تعرّف إلى الزعيم أنطون سعادة في مطلع الثلاثينيات وانتمى لحزبه (رقم بطاقته 34، وهناك وثائق عنه في تاريخ الحزب)، وكان يلتقي به يومياً في الكوخ أو عند المنارة على جل البحر، قبل أن يكون هناك آلات تصوير فوتوغرافي لأن مجمل الصور المأخوذة لسعادة، باستثناء حفنة منها، أُخذت في لبنان بعد عودته من مغتربه في الأرجنتين عام 1947، وقد خسر عمّي وظيفته، رجل تحرٍّ في العدلية من دون أن يتمكّن من العمل لفترة طويلة، بعدما حُرم القوميون من حقوقهم المدنية، ما جعل أبي يمدّ له يدَ العون وتركه ليعتني بالأراضي في القرية.

وقد استغل الكتائبيون حالة عمي وابنه كما تفعلُ عادةً الأحزاب الطائفية في بيئاتها، ولم يكن في عائلتنا مؤيد لحزب الكتائب سوى ابن عمّ لأبي، وكان موقفه سبب انقطاع علاقتنا به، علماً بأن بيار الجد كان يزور بيتنا عشية كل انتخابات نيابية، علَّ الوالد يبدّل رأيه. ولأن والدي لم يكن مسيَّساً أو ذا انتماء، فقد سارَ على طريق أبيه في قبول الآخرين من بقية الطوائف اللبنانية، وعدم الانحياز للدين في السياسة، وعندما أعدموه انتقاماً من عمليتي أعدموا إلى جانبه وفي الوقت نفسه عمّي الأصغر فؤاد الذي كان

> قررت كتابة هذا المقال بأسلوب القصص التي تُروى من جيلٍ إلى جيل

عازباً وحملَ دون معرفتي المُسبقة بطاقةً كتائبية، إنما لم ألاحظ ممارستَه لعضويته في حزبهم.

وهكذا كرّسني فريحة في كتابه مقاتلاً مستبسلاً في صفوفهم على الجبهات أمام الأحزاب من الطرف الآخر الذين قتلتُ منهم المئات ـ حسب تلميحاتِه وتلميحات مقدّم البرنامج المتجاوب معه من دون أي تحفّظ ـ حتى يثيرَ حفيظتهم وغيظهم ضدّي، كما فعلوا عندما حمّلوني ذنب مجازر صبرا وشاتيلا التي ارتكبوها بأنفسهم بسبب اغتيالي «القائد الإنساني» الذي وقف حائلاً دون حدوثها، وكأنّ استمرار الاجتياح ـ لو بقي رئيساً ـ لم يكن ليسقِطَ عدداً أكبر من الضحايا أو كأنه لم يكن المبادر والمعلّم الأول في مجال تلقينهم كيفية القيام بتلك المجازر التي احتاجت إلى حشد قوات وتخطيط مُسبّق، بدءاً بالكرنتينا والضبية وحارة الغوارنة، مروراً بتل الزعتر وجسر الباشا وغيرها من المواقع ضدّ المدنيين العزَّل. ولذلك سعى فريحة إلى تبرئة بشير من بعض هذه الجرائم، ما ذكّرني بحديث أسعد شفتري المخادع في توبتِه، عن عدم تعذيبي أو ضربي أو إيقاع أي ظلمٍ بي لأنني اعترفتُ فوراً وبابتسامة ومن دونٍ أي تردد!

يجدُر التنويه هنا بإجراءات بشير الميليشيوية في استدعاء الشبان قسراً في المنطقة الشرقية للخدمة الإلزامية، والذي كان قد بدأ في حيّ البدوي والناصرة، حيث كنت أتردد إلى منزل إحدى خالاتي المسافرة منعاً لمصادرتِه ككل المنازل الفارغة، فيما أُرغمتُ على حمل بندقية والتردد لمرتين أو ثلاث لا أكثر إلى موقع البرجاوي، حتى لا يصادر رئيس القسم طوني الأشقر الشقّة، كما قال لي خلال مكالمة هاتفية، بعدما لاحظ تهربي منهم، وذلك لانتمائي سراً للحزب القومي، سيَّما أن وساطة مسعود الأشقر رئيس وحدات الدفاع عن بيروت آنذاك، والزميل لشقيقتي في الجامعة لم تنجح في إعفائي كلياً من النزول.

ولا حاجة للعودة أكثر من ذلك في الوقت الحالي أو لذكرِ مزيدٍ من الأسماء وما دبّروه وفبركوه من سيناريوات إعلامية محترفة ومتأثّرة بعلم المخابرات بين مختلف الأجهزة الموجودة فوق الأراضي اللبنانية في مختلف المراحل التي واكبت عملية خروجي من المعتقل إلى يومنا هذا.

المشكلة اليوم، أنّه بعد كشفِ الديباجات المتّفق عليها بين مختلف الأطراف، وهدفها التنصل من أي مسؤولية عني، بحجّة عدم تفتيح الجروح، ما يقودهم عملياً إلى التضحية بي أنا، والتضحية بعائلتي جيلاً بعد جيل. واليوم، لم يعدْ أحدٌ قادراً على تحمُّل وجود شخصٍ مثلي. وقد أصبحت عبئاً على ضمائرهم. فأنا شخص لا يُباع ولا يُشترى، ولم أعدْ أنتمي أو أتبع لأحد أو أتلقى أوامر أحد. وأبقى الشخص المغيَّب قسراً، أحترمُ الجميع، لكنني أتوقع أن يُبادل بالمثل. وسوف أظل أقول كلمتي الحرَّة متى استطعت، وسأبقى حتى آخر يومٍ من حياتي ملتزماً بوطنيتي وقوميتي وبأخلاقي.

ومن هذا المنطلق، وبعدما تأكّد لي تمسُّك الجميع بمحاكمتي، وعدم تطبيق القوانين على حالتي،

وبعد تثبيت حجبي عن الظهور ومنعي من إصدار أيّ كتاب، أو التعبير عن رأيي في أي وسيلة تواصل اجتماعي،

وطالما أنه لا فائدة من أيّ ردّ قانوني،

قررت كتابة هذا المقال بأسلوب القصص التي تُروى من جيلٍ إلى جيل، وفيه:

حدّثني أبي،

ولد أبي في بيروت، كان جدي الشيخ حبيب صالح الشرتوني مختاراً لمنطقة رأس بيروت على مدى أربعة وعشرين عاماً، قضاها في خدمة الناس من دون أن يتقاضى راتبَه أو يتقاضى أيّ مال منهم، متّكلاً في مدخولِه المادي على شراكتِه مع أخيه في مصنع لإنتاج الحرير. وكانت بيروت تضم مئة ألف مقيم في مطلع القرن العشرين، ومنهم ستون ألفاً لرأسها الداخل في البحر.

درس والدي الطبّ في الجامعة الأميركية، وقبل تخرّجه بعام واحد اضطُرّ إلى ترك الجامعة والعمل في مستشفاها القديم الذي لا يزال قائماً إلى يومنا هذا، بعدما خسرَ جدي معظم ماله في تهمةٍ ملفّقة عن عمالتِه للإنكليز ودعاوى أقامها ضدَّه المطران مبارك المؤيّد لهجرة اليهود إلى فلسطين ولبنان، لدى محاكم سلطات الانتداب الفرنسي، والتي سقطت ببراءة جدي وحقّه بردّ اعتباره في المحكمة، بينما توسّله المطران عبر رئيس الجمهورية حبيب السعد ألا يفعلها ليُلحِقَ به الضرر. والخلاف بينهما بدأ عندما صادف وجود ضيف بحضور المطران في منزل جدي في شرتون، ودار الحديث حول تأسيس مدرسة في القرية. وقد أساء المطران للضيف بالكلام، وهذا لم يكن مقبولاً وفق العادات والتقاليد، لكن أبي، عاد وموَّل المشروع في مرحلة لاحقة، ثم سجَّله باسم عمَّتي التي سكنت مبنى المدرسة بعد إغلاقها نتيجة وفاة زوجها في حادث.

وخلال مزاولة والدي عمله في مستشفى الجامعة، اضطر والدي إلى السفر سنة واحدة إلى الولايات المتحدة لنيل شهادة الطب. إذ كان يعمل في المشرحة التي يُجرون فيها أبحاثاً طبيَّة وعلميَّة وفي مختبر التحاليل، ويعمل حارساً على مستودع الأدوية والتحاليل المخبرية التي بلغت أسعارها أرقاماً خيالية أيام الحرب العالمية الثانية. وكان من بين أصدقائه ضباطٌ أميركيون موجودون في بيروت أثناء تلك الحرب، وقد شجَّعوه على السفر حتى يحصل أيضاً على الجنسية الأميركية.

لكنّ جدتي ـ كأي امرأة قروية متعلّقة عاطفياً بأولادها ـ هددت بقتل نفسِها لو سافرَ وابتعدَ عنها. ونزولاً عند رغبتها، أكملَ عملِه حتى ترك المستشفى بعد ستة عشر عاماً وأسَّس مع أربعة من زملائه مختبراً طبياً عُدّ من أوائل المختبرات الطبية الخاصة في لبنان في ذاك الزمان، وكان اسمه «المختبرات الطبية المتحدة» الذي عملَ أكثر من نصف قرن على طريق الترامواي، وقد تبدَّل اسم الشارع أكثر من مرة، قبل أن تُسرق معداته ومحاليله في مطلع الأحداث، بالتعاون بين مالك المبنى وأحد التنظيمات المحليّة.

كان والدي يرفض تقاضي العمولة المتوافق عليها، بين الأطباء والمختبرات ومختلف أقسام الخدمات الطبية، ما دفعَ بمعظم السفارات والشخصيات إلى التعامل معه فترة مديدة من الزمن للصدقية والشفافية والدقة في النتائج.

في تلك الأيام، عرف والدي طبيباً اسمه الدكتور ماير Mayer وهو من عائلة ألمانية يهودية وعريقة، لكنه عارض قيام دولة إسرائيل، وهو مؤيّد لحقوق العرب في فلسطين، أحبَّ والدي كابنِه، إلى حد أنه تمنى عليه الزواج بإحدى ابنتَيه، وقد رجاه السفر معه إلى الولايات المتحدة بعد تعيينه رئيساً لإحدى أهم المنظمات الطبيَّة العالمية، لكن أبي التزم برغبة والدته، فسافر Mayer، تاركاً له منزله مع فرشِه الذي باعَه وأرسل له المال. وفي إحدى المرات، التي كان فيها حاضراً لمؤتمر في ألمانيا، وجدَ أن لديه متّسعاً من ثماني ساعات، فطارَ إلى بيروت علَّه يقنع الوالد بالسفر والعدول عن قراره، بحيث قضى تلك الساعات الليلية جالساً إلى جانبه والدمعةُ في عينِه، لكنّ الأخير كان قد تزوّج في هذه الأثناء وأنجب شقيقتي البكر.

أما منزل جدي المُستأجر فكان يقَع بالقرب من فندق بلازا القديم في آخر شارع الحمرا الممتلئ بأشجار الصبَّار، ما يستدعي المرور بجلّ البحر سيراً على الأقدام لبلوغه حتى لا يتطاير وبرُ الصبّار مع الهواء على المارّة، وحيث كان أبي يصطادُ العصافير ببارودة أهداه إياها صديقٌ من آل لبان، وقد استعملتها بدوري أيام الطفولة. وقد توسَّلت مالكةُ المنزل جدّي البقاء فيه وامتلاكه مقابل مبلغ زهيد من المال حتى لا تترك العائلة رأس بيروت، بعدما سعى كثيرون لإقناع عمّي القبول بالمخترة بعد جدّي، فيما فضَّل الأخير وظيفةً في البريد المركزي أوصلتْه إلى إدارة قسم الطرود على مدى ربع قرن، وقد زرتُه برفقة الوالد مرةً واحدة في مكتبه الواقع إلى جانب مبنى البرلمان. وقد أصر جدّي على العودة إلى الجبل لمعاونة رئيس الجمهورية حبيب باشا السعد، الذي يقطن على مقربة من منزلنا، ومنذ ذاك الوقت شغل المخترة معاون جدّي من آل «ربيز»، ما أمسى تقليداً لعائلته.

منزل العائلة الأساسي كان جميلاً ووسيعاً، يقعُ في أول فرن الشباك بمحاذاة أحد فروع الجامعة اللبنانية، وتنازل جدّي لشقيقه عن حصته مقابل منزل الجبل العائد إلى العائلة أيضاً، والذي عادَ وأعطاني قسماً منه، وقد استعادته أمي بعد وفاته من ابن أخيه مقابل مبلغ مالي.

في منزل بيروت، مات الشيخ اللغوي سعيد الشرتوني (1) شقيق مؤلف «مبادئ الصرف والنحو» المعلم رشيد الشرتوني، وقد ظلت صورتان لهما معلّقتين في غرفة نومي في منزلنا القروي المبني قبل أكثر من مئتي عام، إلى أن نُسف ثلاث مراتٍ على يد ميليشيات «القوات اللبنانية» في شرتون، وسُرقت محتوياته، ومنها سيفٌ يرجع إلى زمنِ الرسول محمد، إلى جانب كتب قديمة جداً، بينها نسخة من الكتاب المقدَّس بالسريانية وحجمه يوازي حجم وشكل حقيبة السفر القديمة، بالإضافة إلى مفروشات فاخرة ترجعُ إلى القرن التاسع عشر.

لا ريب أن الشيخ حبيب عادَ ولعبَ دوراً مهماً في معاونة رئيس دولة ما قبل الاستقلال، بحيث أمَّن له أيضاً حماية منزله في زمنٍ درجَ فيه الثأر وحوادث الاعتداء الطائفي، ما عرَّض داره في «عين تريز» لأكثر من محاولة اعتداء، تماماً كما فعل الشيخ حبيب مع عائلات كثيرة كانت على وشك أن تُظلم في